

## مفهوم التاريخ لدى مدرسة الحوليات الفرنسية

د. نيمية أحمد

جامعة الشلف

إن الاشكالات الجديدة التي أعيد طرحها من طرف أغلب المهتمين بالدراسات التاريخية، من مؤرخين وفلاسفة ومفكرين، كانت نتيجة لما حصل من تحوّل في مناهج ومدارس الكتابة التاريخية منذ بداية القرن العشرين، وبناء على هذا، فهل يمكن اعتبار هذا القرن هو بداية شكل جديد من أشكال التفكير في التاريخ؟ وهل هذا التحول أحدث حقا قطيعة مع مختلف أشكال كتابة وتفسير التاريخ السابقة؟

يعرف التاريخ، إضافة إلى أنه الدراسة العلمية للأحداث البشرية الفعلية الواقعية الماضية... بأنه "العلاقة بين المظاهر الماضية، الخاصة بالحياة: الحياة الانسانية، حياة المجتمعات والأفراد"<sup>1</sup>.

لقد اعتبر بول فاين Paul Veyne وهو من ألمع مؤرخي فرنسا خلال القرن العشرين، أن ما حدث في هذا القرن كان "طفرة التاريخ" فالطفرة الثانية هي التي استطاع من خلالها مؤرخونا تجسيد الوعي بالحدث التاريخي شيئا فشيئا، الحدث الذي يعتبر كل شيء مدين للتاريخ فهذه كانت الثانية. أما الطفرة الأولى التي عرفها التاريخ العالمي، فهي حينما تخلصنا من التفسير الاسطوري لتعقب الحقيقة التاريخية.<sup>2</sup>

إنه لا يوجد تاريخ سياسي كبير، يروى، بل أن كل فعل، وكل حركة إنسانية لها دلالتها ومعانيها الخاصة والتميزة التي تهتم المؤرخ، كما تهتم كل المختصين في فروع المعرفة الأخرى، أي ضمن مجال العلوم الإنسانية بصفة عامة.

---

1- Dictionnaire Larousse, Larousse, Paris, 1991

2- Veyne Paul, Encyclopaedia Universalis, France, 1990, corpus, 11, p 466

إن هناك العديد من نماذج مدارس التاريخ المعاصر التي تجاوزت التاريخ التقليدي الحكائي/الروائي، وحققت معه قطيعة بشكل أو بآخر، متأثرة في ذلك بما قدمته العلوم الإنسانية الأخرى، والفكر الفلسفي الجديد من أفكار ومفاهيم ومناهج جديدة.

### 1- ظهور مدرسة الحوليات:

من أجل مواجهة المدرسة الوضعية للتاريخ ظهرت أطروحة جديدة في مدارس التاريخ الفرنسي المعاصر، وكانت أهمها مدرسة الحوليات *Ecole des Annales* تعر عن أفكارها في البداية في مجلة التركيب *La Revue de Synthèse* منذ سنة 1920م، ثم في مجلة الحوليات *Annales* التي ظهرت خلال سنوات الثلاثينات، وما تزال تصدر حتى اليوم، ومن خلالها كانت أفكار مدرسة جديدة تتشكل وتبلور، "فهذا التيار الجديد أهمل الحدث وركز على المدة الزمنية الموهلة في الطول، وحول اهتمامه من الحياة السياسية إلى النشاط الاقتصادي"<sup>1</sup>.

ولذلك فقد كانت هناك قطيعة حاسمة مع ما سموه بالتاريخ الحديث *L'histoire événementielle* الذي كان يركز على المدة الزمنية القصيرة والسريعة والأحداث البارزة السياسية والعسكرية بشكل خاص، ويبدو أن الأهمية القصوى التي عرفتتها مدرسة الحوليات الفرنسية، تمثلت في تميزها الدائم بمحاولة إحداث مقارنة إبستمولوجية في دراسة الماضي، في مقابل المناهج التي كانت تنادي بها المدارس العلمية الأخرى التي عرفت ازدهارا أكبر. ولقد اجتمع لوسيان فافر *Lucien Febvre* في سلسلة مقالاته "دفاعا عن التاريخ" التي ظهرت فيما بعد في كتاب "معارك من أجل التاريخ"<sup>2</sup> وكذلك مارك بلوخ *Mark Bloch* في كتابه الذي لم يتممه "مهمة المؤرخ"<sup>3</sup> إضافة إلى المؤرخ الكبير، فرنان بروديل صاحب أطروحة ضخمة

<sup>1</sup>- BOURDE GAY ET MARTIN HERVE, *les Ecoles historiques*, Seuil, Paris, 1988, p 172.

<sup>2</sup>- FEBVRE LUCIEN, *Combats pour l'histoire*, Paris, Armand Colin, 1952.

<sup>3</sup>- BLOCH MARC, *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien*, 1941, 1949.

حول تاريخ البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي<sup>1</sup>، قام هذا التيار الجديد بوضع حدود معرفية جديدة لدراسة التاريخ الحديث، وهو التاريخ التقليدي الروائي، والشروع في قراءة وكتابة تاريخ المدة الزمنية الطويلة، تاريخ الحضارات والمجموعات الاجتماعية الكبرى، بنظمها الاقتصادية وتنظيماتها الاجتماعية وسيكولوجياتها الجماعية، في فضاء جغرافي محدد ومدرس. كما عملت هذه المدرسة على تقريب التاريخ من العلوم الانسانية الأخرى. "ففي سنوات 1950-1960 قام المشرفون على الحوليات بفتح الباب أمام الجغرافيا التاريخية والتاريخ الاقتصادي وعلم السكان التاريخي أي الديموغرافيا. كما قاموا في سنوات السبعينات من القرن العشرين بفتح مجال التاريخ على دراسة الجوانب الفكرية من حياة المجتمعات. وفي نصف قرن من الزمن استطاعت هذه التجربة بث روح "الحوليات" لدى مختلف المؤرخين الفرنسيين زيادة على انتشارها داخل الجامعات والمراكز العلمية، كما أثرت في الكثير من المؤرخين في الخارج، في أوروبا الغربية، والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية"<sup>2</sup>.

كما وجدت هذه المدرسة صدى واسعا في روسيا حيث يقول يوري بسمرتني: "لأن هناك ظروف أخرى ألت إلى وجود اهتمام خاص بالحوليات في بلدنا، تمثلت في ذلك الرفض الذي كانت تعاني منه حتى مدة قريبة من طرف ممثلي التاريخ الرسمي في الاتحاد السوفياتي سابقا"<sup>3</sup>.

إن وصول مدرسة الحوليات إلى وضع مكانا لها ضمن اهتمامات المؤرخين والمفكرين الروس، لهو دليل واضح على أهمية مدرسة الحوليات في أوروبا وبخاصة أن جزءا كبيرا من هذه القارة كان حصنا منيعا ضمن هيمنة المدرسة الماركسية الجدلية التاريخية.

---

1 - BRAUDEL FERNAND, *La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, ARMAND COLIN, PARIS, 1949.

2 - BOURDE GAYET MARTIN HERVE, *op. cit.*, p 172.

3- BESSMERTNYURI, *Les annales Vue de Moscou*, in *Annales ESC*, Jan/Fev., 1992. N°1, pp 245-259

## 2- التاريخ بين الحقيقة والموضوعية

إن كل المجهودات التي بذلت من داخل مدرسة الحوليات، كانت تهدف إلى الاجتهاد أو الاقتراب من الحقيقة التاريخية بدون شك، وهذا الهدف يصطدم دوما بالذاتية التي كثيرا ما تشوه الخطاب التاريخي العلمي المتزن، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا إذا تم وضع تعريف دقيق لكل من مفهومي الذاتية والموضوعية من الناحية المعرفية والمنهجية.

إن التاريخ في نهاية المطاف هو ما يكتبه المؤرخون ولكن قيمته تتجلى فيما يسوغه المؤرخ من وعي فلسفي، فالبحث عن دلالات التاريخ ومفهوم الحقيقة، هو نهاية مغامرة كل منهما، فالتاريخ يجب أن يمتلك الحقيقة لكي يصل إلى الموضوعية. وقد تحمل الموضوعية هنا مدلولات متعددة، لذا يجب أن نأخذها هنا بمنظار إبستمولوجيف الموضوعي هو ما بلوره التفكير المنهجي ونظمه وبالتالي أمكن تفسيره<sup>1</sup>، ويضيف بول ريكور Paul Ricœur قائلا: "إننا ننتظر أن يكون التاريخ تاريخا للبشر، وأن يكون تاريخ البشر هذا مساعدا للقارئ الذي هذبه تاريخ المؤرخين، في بناء ذاتية من مستوى رفيع، أي ذاتية الانسان وليس ذاتيتنا الذاتية"<sup>2</sup>.

لقد حاولت مدرسة الحوليات استثمار كل ما يمكن استثماره من علوم ومعارف ومناهج بحث لتحقيق الوضعية، وبالتالي الوصول إلى الحقيقة التي وصلت إليها العلوم الطبيعية، حيث حاول مارك بلوخ في كتابه "مهمة المؤرخ" أن يضع المعايير والثوابت الممكنة لتحقيق هذا الهدف، كما قام فرنان بروديل خاصة في كتابه "البحر المتوسط والعالم المتوسطي خلال عهد فيليب الثاني" التأسيس لمنهج جديد وتجديد بعض المفاهيم، بإعادة النظر في الزمن واعادة الاعتبار إلى المدة الأكثر طولا، وإعطاء الفضاء الجغرافي مكانا جديدا في التاريخ وجعل من الاقتصاد عاملا أساسيا من عوامل توجيه حركة التاريخ.

<sup>1</sup>- BOURDE GAY ET MARTIN HERVE, op. cit., p 172

<sup>2</sup>- RICŒUR PAUL, (1955), Histoire et Vérité, Seuil, Paris, p23.

### 3- بروديل: التاريخ والطفرة

يحدثنا فرنان بروديل عن نفسه وبإسهاب في كتابه *Écritssur l'histoire*، فهو من مواليد 1902 بشمال فرنسا، (توفي في سافوا سنة 1985)، كما يروي لنا كيف قضى طفولته السعيدة بين الريف مسقط رأسه وبإريس أين كان يدرس والده، وكيف تحصل على شهادة التعليم ارتحل إلى كل من قسنطينة والجزائر العاصمة كمدرس للتاريخ في الفترة الممتدة بين سنوات 1923 و1931 وبعدها انتقل إلى البرازيل حيث التقى بكلود ليفي ستروس<sup>1</sup> وقد أدت به رحلاته الكثيرة بين ضفتي البحر المتوسط، شمال إفريقيا وجنوب أوروبا إلى اكتشاف وحب هذا البحر. وكان هذا هو العامل الأساسي الذي أدى به إلى اختيار موضوع دكتوراه حول تاريخ البحر المتوسط الذي ظهر فيما بعد في كتابة ضخمة شكلا ومضمونا. كما تعرف إلى لوسيانفابر، الذي أصبح صديقه الحميم ومارك بلوخ وهنري بار في مدرسة الحوليات التي كانت تختلف عن مجلة التركيب التي تميل إلى التنظير وتهتم بالمفاهيم الأكثر تجريدا. ويقول "مع الحوليات نحن على أرض الواقع، وفي صفحاتها ذكر لرجال في الزمن الحاضر والماضي نتعقّبهم بمشاكلهم المحسوسة، إنهم أحياء"<sup>2</sup>. ومنذ سنة 1939 حتى سنة 1945 كان لاعتقال بروديل وبقائه في المعتقلات الألمانية السبب المباشر في كتابة "البحر المتوسط" حيث كان بذكرته الخارقة يسترجع ما درسه من وثائق تاريخية. وشرع في إنجاز هذا العمل الضخم، وبعد خروجه من المعتقل قام بإعادة تصحيح وتقويم ما كان قد فاتته وصدر الكتاب عام 1949 في طبعة ثانية حوت 1222 ص. وكان يقول لوسيانفابر "لولا السجن لما أمكن لبروديل إنجاز هذا العمل". وقد حاول بروديل في هذا المؤلف شد أنظار المؤرخين إلى رؤية جديدة حول قضايا التاريخ، وإلى التخلص من

<sup>1</sup>- BRAUDEL FERNAND (1969), *Écritssur l'histoire*, Flammarion, Paris. p 23

<sup>2</sup>- Ibid, p 23.

الشعور العميق "بالأزمة" التي عاشها التاريخ خلال العشرين أو الثلاثين سنة الماضية<sup>1</sup>.

لقد وجه بروديل انتقادات شديدة للمؤرخين الذين وصفهم بالتقليديين وأيضاً إلى نماذج التاريخ الحديث الذي يركز الوصف والدراسة عادة على الأحداث السياسية السريعة والبارزة. فالتاريخ الكلاسيكي هو تاريخ روائي يسوغ الأحداث في شكل مأساوي أو في شكل صور مصغرة سريعة خالية من كل تحليل "حينما يتوجهون إلى البحث في الأسباب فهم يمارسون لعبة وهمية لا ترتبط بحقيقة الأحداث"<sup>2</sup>.

لكن التاريخ ليس أحداث كبرى فقط بل هو أيضاً الأحداث العريضة أو اللحظات التي تبدو بسيطة في مسيرة التاريخ التطورية الكبرى، يتشكل ذلك التحول من الطول، ومن تفسير الزمن الحداثي إلى البحث عن بعد المكان، أي الزمن الجغرافي، ومن التجزئة إلى الشمولية، وهذا ما حاول القيام به، وحقق بذلك تلك الطفرة التي أحدثت القطيعة في المعرفة التاريخية.

#### 4- أشكال الزمن التاريخي

يحدد بروديل معنى للتاريخ يتخلص في قوله "أن التاريخ هو مجموعة التواريخ الممكنة أي مجموعة المهن ووجهات النظر المنتمية إلى الأمس واليوم والغد"<sup>3</sup>. فكل زمن تاريخي هو عملية تجزئة كرونولوجية، وهذه التجزئة تعكس عادة اتجاه المرجعية التي ينتمي إليها المؤرخ، ذاتية أو موضوعية. وهنا يجعل بروديل من الزمان بعداً من أبعاد المكان وإحداثيات له، ويعرف الزمان التاريخي بأنه "الزمان الواقعي الاختياري المطلق الذي ينطبع بطابع النسبية، فهو يفرز تواريخ متنوعة ومتباينة"<sup>4</sup>، ولذلك يقسم التاريخ إلى ثلاث مستويات رئيسية: فهناك "تاريخ ثابت هو تاريخ الإنسان في

<sup>1</sup> - BRAUDEL FERNAND' (1969), *Écrits sur l'histoire*, Flammarion, Paris, p 24.

<sup>2</sup> - SOUARIT BENAMER, *Histoire et Mutation*.

<sup>3</sup> - BRAUDEL FERNAND' (1985), *La dynamique du capitalisme*, Arthaud, Paris, p 3.

<sup>4</sup> - سام يوت، (1991)، الزمان التاريخي، دار الطليعة بيروت، ص 42.

علاقته بالمحيط، تاريخ بطيء في حركته وتغيراته... وتحت هذا التاريخ الثابت هناك تاريخ يسير بهدوء، ونقول بكل إرادة إذا لم يتم تحريف الكلمة عن معناها الحقيقي، تاريخ اجتماعي مثل تاريخ المجموعات والتجمعات... وهناك النمط الثالث من الزمن التاريخي وهو التاريخ التقليدي إذا أردنا، هو تاريخ ليس فيه بعد الإنسان، ولكن بعد الفرد وهو التاريخ الحديث<sup>1</sup>. وعليه فهناك إذن، تاريخ جغرافي، أي المكان والطبيعة كتاريخ، وتاريخ ظرفي، اجتماعي خاص بالمجتمع والحضارة، وكذلك تاريخ حديثي، وهو التاريخ السياسي التقليدي المعروف.

ولكن الحقيقة أن الزمن واحد في جميع المستويات، فهو نفسه، ولكنه يتخذ صورا وأشكالا متباينة، فيكون زمنا قصيرا أو طويلا، أو موعلا في الطول، إن هذا التقسيم في حقيقة الأمر هو تقسيم لضرورة التبسيطية التعليمية. لقد اتخذ التاريخ عند بروديل الحضارة موضوعا له، فالأفق التاريخي كان موضوعه الحضارة، وهنا يحاول استعمال المنهج التاريخي بطريقة شمولية، موضوعية، وتطبيقه على الحضارة التي هي "مجموعة تاريخية يشملها نمط واحد من الحياة المادية والروحية، وسيمتها أنها مرتبطة أوثق الارتباط بمكانها الجغرافي"<sup>2</sup>. فالحضارة هي محطة موضوع التاريخ وهي ذات زمن متوسط لأنها تشمل أحداث موعلة في القديم، وأحداث متوسط الزمن وأحداث أخرى قصيرة من حيث امتداداتها الزمنية.

إن التقسيم الذي قدمه بروديل يدخلنا حتما في تحليل العلاقة الجدلية بين مختلف الأزمنة الثلاثة أي مستويات الزمن التاريخي، فما هي العلاقات التي تربط بين الممد الثلاث من حيث الشكل، ومفهوم كل فترة أو مدة من حيث تحديد معناها ووظيفتها في الزمن التاريخي وعلاقاتها بالفترات الأخرى، ومن حيث المضمون أي العلاقات بين المؤرخ الذي يشكل خطاب

<sup>1</sup> - BRAUDEL FERNAND *La Méditerranée...* op. cit., pp 16-17.

<sup>2</sup> - سالم يفتوت، مرجع سابق، ص 41.

أو فضاء أبستمولوجيا يتعامل من خلاله مع الزمن التاريخي ليشكل صياغة التاريخ النهائية.

فهذه المدد التاريخية غير معطاة سلفا بل يقوم المؤرخ بإنشائها عن طريقة الخطاب، وبفضل الخطاب التاريخي يتم تحديد العلاقة وضبط لعبة البسيط والمركب أي تحليل المدة الزمنية الطويلة إلى مدد بسيطة، "وهذا ما يسمح بكتابة تواريخ عديدة لنفس التاريخ"<sup>1</sup>.

## 5- البنية والزمن التاريخي

لقد وضعنا بروديل من خلال تقسيمه هذا لمستويات التاريخ أمام تصور جديد، هذا التصور نشأ عند تحليل العلاقة الجدلية بين المدد الزمنية وتصور مسار التاريخ في شكله المركب والبسيط فهو يكون إذن ببنية، ويقول لوروا لادوري: "كان كتاب البحر المتوسط هو التجربة الأولى للتاريخ البنيوي"<sup>2</sup>.

إن اختلاف الأحداث وتعددتها وتنوعها واتخاذها أي مستوى من مستويات الزمن التاريخي الثلاث يجعل التفسير في التاريخ التقليدي تفسيراً روائياً، طويلاً، وهذا التاريخ يهتم الاقتصادين بالدرجة الأولى، لأنهم يعتبرون أن الأزمات الاقتصادية هي أزمات بنيوية أو أزمات بنيات، "لقد بقيت هذه الأحداث التاريخية مجالا للفرضيات، ولم يتم التحقق منها عن طريق التجربة، فهي كذلك تتيح أفقا للتاريخ الواسع، فالبنية هي التي كانت تسيطر على التاريخ ذو المدى الطويل"<sup>3</sup>.

فالبنية حسب ليفي ستروس هي نسق وداخله هناك نظام متجانس بين مختلف الطبقات الاجتماعية، لكن داخل هذا النظام تصبح بعض البنيات ثابتة وبالتالي فإنها تعيق حركة التاريخ، فلا يستطيع الإنسان

<sup>1</sup>- سالم يوت، مرجع سابق، ص 43.

2- PIERRE CHAUNU, *La Méditerranée c'est Braudel «entretien»*, in, *L'Histoire n°157*, 1992, p 71.

3- Ibid., pp 71-72.



أو العقل الإنساني تجاوزها، فيتحول التاريخ إلى تاريخ ميتافيزيقي، أو ذاتي، أو فوضي...

وفي هذه المرحلة يكون التاريخ والمؤرخ في مأزق حقيقي، وأمام حتمية، فلا يستطيع أن يعطي للصيرورة اتجاه آخر أو اتجاهات أخرى ذات أبعاد متفاوتة، وفي هذه الحالة تحدث الطفرة، وتنتهي إلى اعتبار الخطاب المؤسس من طرف المؤرخون الصيغة الأكثر تكاملاً للتاريخ.

من هنا فقد تركزت أعمال بروديل على الزمان وعلى بعده الجغرافي، وكذا المدة الموعلة في الطول، وفي النهاية على العامل الاقتصادي، وهي التي تمثل الأعمدة الثلاثة لتصوير بروديل للتاريخ، وهذا التصور قد تشكل بعدما انتهى من إنجاز مؤلفه الرائد "البحر المتوسط والعالم المتوسطي خلال عهد فيليب الثاني"، كما تقول زوجته "عندما دعيت لأشرح وأتحدث عن البدايات الأولى للمغامرة الفكرية لبروديل... هذه البدايات لم تتشكل في منطق النظريات المجردة، ولكن تشكل ذلك الفكري عدم انتظام التصورات المبدعة، التي كونت لديه صورة داخلية... وأقول أن هذه النظرية لم تكتمل لديه سوى في وقت متأخر"<sup>1</sup>.

لقد أحدث هذا التصور تحولا في شكل التاريخ، ولكن هذا الشكل واصل تحولاته حتى اليوم، كما أن الجغرافيا لم تعد مثلما كانت عليه في الماضي، ولأن فكرة المدة الزمنية هي الفكرة الأكثر سدادا لتحويل الزمن التاريخي إلى دراسة الظواهر المسجلة في مدد زمنية أخرى في بعض الأحيان تكون قصيرة. أما العامل الاقتصادي فلم يحافظ على مكانته كعامل قوي في تحليل الدراسات التاريخية بعد سنوات الستينات.

إن تعدد التخصصات وادماج مجموعة من العلوم كما نادى بها بروديل لم تعد تؤدي الوظيفة التي كانت تؤديها سابقا بسبب تعقد وتشعب العلوم، وكذا المشاكل الجديدة التي ظهرت داخل المجتمع "نحن نعيش

---

1- SOUARIT BENAMER, HISTOIRE ET MUTATION.

ومنذ حوالي 25 سنة أزمة لا نستطع تحديد أسبابها بالضبط"<sup>1</sup>. كما أن التخصصات المعرفية الجديدة لم تعد تحكمها علاقات اتصال جيدة. لقد ترك بروديل مدرسة تهتم بالفكر التاريخي مدرسة تتكون من جيلين مختلفين، جيلا يؤيده ويدافع عن أفكاره وجيل يعارضه، ولكن الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو سيعمل على استثمار ما قامت به مدرسة الحوليات وبخاصة أعمال بروديل حيث يشيد بهذا التحول الذي شهدته كتابة التاريخ في مقدمة كتابه "حفريات المعرفة" ويقول "إن في هذه النقطة يتحدد المشروع الذي حاولنا أن نرسم خطوطه العامة والأولية في كتاب "الكلمات والأشياء". وفي "تاريخ الجنون"، "ومولد العيادة" وهو مشروع نسعى فيه إلى قياس التحولات التي تحدث عامة في التاريخ"<sup>2</sup>.

لاشك أن مدرسة الحوليات الفرنسية وبخاصة أعمال فرنان بروديل التنظيرية وإنجازاته الكبرى العملية، كان لها عظيم الأثر، على مسارات العلوم الإنسانية عامة وعلى التاريخ وقراءته وتفسيره خاصة.

---

1- BRAUDEL PAUL, comment Fernand Braudel a écrit «la Méditerranée» in l'Histoire N°:207 Fev. 1997. P 84.

2- FRANÇOIS DUFAY, «Il était écrivain» in l'Histoire, N° :192 oct., 1995, p84.